مجلة
المجمع العلمي العربي

١ تشرين الأول سنة ١٩٥٥ ١٣ صفر سنة ١٣٧٥

جرير

-٣-

أما الأغراض التي نظم جرير فيها فأهمها الهجاء والغزل ، ثم المدح والفخر والرثاء ، ويأتي بعدها أغراض شتى لم يُعنَ بها كثيراً كالوصف والحكمة وما اليها .

الهجاء

جرير شاعر هجّاء ، بل هو أكبر الهجّائين في العصر الأموي الذي استشرى فيه هذا الفن . كان الهجاء أول ما جرى على لسانه من الشعر ، وظل يمارسه طول حياته حتى أسكته الموت ؛ ولقد تألب عليه نحو من خمسين شاعراً فأسقطهم كلهم إلاّ الفرزدق والأخطل لذلك فأكثر شعره في الهجاء ، قال مشيراً الى عدد الشعراء الذين تألبوا عليه وهجوه فأسقطهم : (ديوان جرير ص ٣٤٣) -

أعددتُ للشعراء كأساً مُرَّةً عندي مُخالطها السِّمام المُنْقَعُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هلاَّ نهاهم تسعةٌ قتلتهم أو أربعون حدوتهم فاستجمعوا
خصيت بعضهمُ وبعضٌ جُدِّعوا فشكا الهوانَ الى الخصيِّ الأجدع

وهو على خبث لسانه وإقذاعه في الشتيمة شريف في خصامه لم يتخذ الهجاء أداة يتكسب بها كما فعل غيره . بل كان يعتبره سلاحاً ينازل به الأنداد من الخصوم ؛ فكل من هاجاهم شعراء أو في معناهم . ولم يكن يبدأ أحداً بالهجاء بل كان الشعراء يتحرشون به فيصليهم ناراً حامية ، وكان إذا روى شيئاً من الهجاء استغفر الله وأطال التسبيح . قال له يوماً رجل : ما يغني عنك هذا التسبيح مع قذفك للمحصنات ، فتبسم وقال : يابن أخي (خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم) إنهم والله يابن أخي يبدءوني ثم لا أحلم [1] .

وفي شدته على الشعراء يقول : (الديوان ص ٥١٣)

عوى الشعراء بعضهمُ لبعضٍ عليَّ فقد أصابهمُ انتقامُ
كأنهمُ الثعالب حين تلقى هزبراً في العرين له انتحام
اذا أوقعتُ صاعقةً عليهم رأوا أخرى تَحرَّقُ فاستداموا
فمصطلَمُ المسامع أو خَصِيٌّ وآخر عظم هامته حُطام

ويقول : (الديوان ص ٣٥٥)

كان الذين هجوني من ضلالتهم مثل الفراش وحر النار إذ يقعُ

ويقول : (الديوان ص ٤٩٥)

ترى الشعراء من صَعَقٍ مُصابٍ بصكته وآخر مستديمِ

وجرير يعتبره الرواة أكرم الهجائين لأنه لم يهجُ أحداً مدحه ولم يمدح أحداً هجاه . قال أبو عبيدة : « كان المخبَّل القريعي أهجى العرب ، ثم كان بعده حسان بن ثابت ثم الحطيئة والفرزدق وجرير والأخطل ، هؤلاء الستة الغاية في

(١) الأغاني ، ج ٨ ص ٤٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الهجاء وفي غيره ، لم يكن في الجاهلية ولا في الاسلام لهم نظير ، وكان جرير أشدهم تكرماً ، لم يمدح أحداً فهجاه ولم يهج أحداً قط فمدحه ، وكان الفرزدق يمدح الرجل ثم يهجوه [1] » .

وعلى يد جرير وصاحبيه الفرزدق والأخطل استطار شر الهجاء وهتك الشعراء أعراضهم وأشاعوا المثالب وأفحشوا في القذف حتى أصبح الهجاء في العصر الأموي أوسع فنون الشعر ، ولو جمعت نقائض جرير وجميع الشعراء الذين هاجاهم لكانت أكبر ديوان عرفه الشعر العربي ، والذي وصل الينا منها نقائض جرير والفرزدق ونقائض جرير والأخطل وفيها ما يربو على الغاية ، وضاعت نقائض بقية الشعراء الذين هاجاهم وهم أكثر من أربعين شاعراً نصبوا له فرماهم واحداً بعد واحد .

وقد يعجب الإنسان لاحتمال العرب لهذه المساجلة من الشتائم مع ما عرف عنهم من الأنوف الحمية والعصبية الشديدة ، لأن الشاعر لم يكن يقتصر على قذف المهجو بل يتعداه الى أهله وقبيلته ويسهب في هذه الناحية كثيراً . ولعلهم كانوا يعتبرون الهجاء حرباً لا يجوز أن يكون السلاح فيها غير الكلام ، ولهذا الاعتبار سموا القصائد التي يتهاجى بها الشاعران نقائض ؛ فكأن الشاعر ينقض بجوابه جميع ما بناه خصمه من المثالب ويمحو ما نبزه وقومه به من المعائب ؛ ومن سقط في المعركة كف عنه خصمه ولم يعد إلى مبارزته .

وجرير في هجائه خصم شديد جريء ، واسع الحيلة بصير بالمقاتل لا يخطئ المرمى ، يهاجم خصمه في نفسه وأهله وقبيلته ، لا يعرف هوادة ولا يقف عند حد ؛ بل يقذع ويفحش ويهتك الأعراض ويشيع المثالب ويبالغ ويتزيد ويختلق ويفتري على النساء ؛ ويظهر طبعه أقوى ما يكون وأشد تدفقاً ،

(١) نقائض جرير والفرزدق ، ص ١٠٤٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبواتيه حسن التعبير وبراعة الصوغ فيكرر المعنى الواحد في قصائد متعددة فيكون له وقع خاص كأنه معنى جديد . قال البحتري : « جرير لا يتجاوز هجاء الفرزدق بأربعة أشياء : بالقين وقتل الزبير وبأخته جعثن وامرأته النوار[1] » وتسير أبياته مسير الشمس فتروبها الخاصة والعامة لسهولتها وانسجامها .

وأشد ما في هجائه السخرية والتهكم واللذع والمرارة ، يهزأ بالمهجو فيبرزه ألعوبة ممسوخة تستثير الضحك ويتهكم به وبقومه فيجعلهم سخرية لا شأن لهم ولا خطر ، يسخر من هيئاتهم ومهانتهم وأقوالهم وأفعالهم وقبح نسائهم وخساسة رجالهم وقذارتهم وسقوط همهم ، بأسلوب مملوء بالتهكم والهزء . روي عنه أنه قال : « إذا هجوتَ فأضحك[2] » فالفرزدق قرد أصلع أو لعبة من لعب الصبيان يتزو بأثواب مصبغة مزركشة ، والأخطل خنزير هرم يتقمم الخبائث ويعب في أم الخبائث ، فاذا رأى راية حرب طار فؤاده واستجار بمار مرجس وأعلن أنه وقبيلته من القائلين بالسلام لا بالحرب والخصام . وبنو تيم همل لا يبالي بهم أحد ، يُقضى عليهم وهم غائبون ، ولا يستشارون وهم حاضرون ، وتنتف شوارب وفودهم على أبواب الملوك . ولعل نثر معانيه في هذا الباب مما يذهب بطلاوتها فسيمر بك بعضها .

ولا يستجيب الشعر لجرير في فن من الفنون كما يستجيب له في الهجاء ، فتراه يشتد ويقوى ويتدفق طبعه ويثقب ذهنه وتفتح له أبواب القول وتنبسط آفاقه ، فيصيب الهدف ويرمي بالصواعق ويبعث بالشوارد ويأتي بالمضاحك والأفاكيه ولا تغيب عنه النكتة ، ويسلس له عنان المقال فيبلغ منه ما يشاء ويجمع ثلاثة في قرن واحد :

---

(١) الموشح للمرزباني ، ص ١٢٤ .

(٢) العمدة لابن رشيق ، ج ٢ ص ١٤٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لما وضعتُ على الفرزدق ميسمي وضعا البعيث جدعتُ أنف الأخطلِ

ويصل بين اثنين بأدهى صلة :

ترى برصاً بأسفل إسكتيها كمنفقة الفرزدق حين شابا

ويسقط قبيلة ببيت واحد :

فغض الطرف إنك من نُميرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

ويعبث بالمهجو وقبيلته فيصورهم صورة مضحكة فيجتنبون الإتيان بما هجاهم به خلفاً عن سلف ، روي عنه أنه قال : لقد قلت في تغلب بيتاً لو لذعتهم الأفاعي بأستاههم بعده لما حكوها :

والتغلبي إذا تنحنح للقِرى حك استه وتمثل الأمثالا

ومر [1] بلال بن جرير بمنازل تيم ، فقال النساء : مرحباً بابن جرير انزل فلك ماشئت من شواء وأقط وتمر ، أما الطحين فلا طحين . يردن بذلك ما قاله فيهن جرير :

إذا حركت تيمية هاديَ الرحى تنفس قُنباها فطار طحينها

ولو خلا هجاء جرير من الإقذاع لكان في دراسته متعة ولذة وفائدة لما فيه من قوة العارضة وحسن البادرة وشيوع النكتة ولذع التهكم ومر السخرية ، أضف الى ذلك بعض الحوادث التاريخية كالمثالب التي يعيب بها قبيلة المهجو ، والمفاخر التي يفخر بها عليه في الجاهلية والإسلام مما يجعل للقارئ كثيراً من أيام العرب وحوادث القبائل وأخبار بعضها مع بعض .

وهجاؤه كله قوي معدود من أجود شعره وجامع لأكثر خصائصه التي امتاز بها . من ذلك قوله يهجو الفرزدق : (الديوان ص ٥٥٩)

لقد ولدتْ أمُّ الفرزدق فاجراً فجاءت بوزوازٍ قصير القوائمِ

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ، ج ٣ ص ٣٩٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وما كان جارٌ للفرزدق مسلمٌ ليأمن قرداً ليله غير نائم
يوصِّل حبليه إذا جنَّ ليله ليرقى إلى جاراته بالسلالم
تدليتَ تزني من ثمانين قامةً وقصَّرتَ عن باع العلى والمكارم

وقوله فيه : (الديوان ص ٢٨١)

وهل كان الفرزدق غير قردٍ أصابته الصواعق فاستدارا
وكنتَ إذا حللتَ بدار قومٍ رحلتَ بخزية وتركتَ عارا

وقوله فيه : (الديوان ص ٤٨٢)

لبستُ سلاحي والفرزدقُ لعبةٌ عليه وشاحا كُرَّجٍ وجلاجِلُهْ
أعدوا مع الحلي الملاب فانما جريرٌ لكم بعلٌ وأنتم حلائله

وقوله فيه وكان الفرزدق قد حلف ليقتلن مربعاً راوية جرير : (الديوان ص ٣٤٨)

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربعُ

وقوله يهجو الأخطل : (الديوان ص ٥٢)

أبا مالكٍ مالت برأسك نشوةٌ وبالبِشر قتلى لم تطهر ثيابُها
ظللت تقيء الخندريس وتغلبٌ مغانم يوم البشر يُحوى نهابها
أيفخر عبدٌ أمه تغلبيةٌ قد اخضرَّ من أكل الخنانيص نابها
غليظة جلد المنخرين مصنةٌ على أنف خنزيرٍ يُشَدُّ نقابها

وقوله فيه : (الديوان ص ٤٥١)

والتغلبي إذا تنحنح للقِرى حك أُسته وتمثل الأمثالا
حملتْ عليك حماةُ قيسٍ خيلها شعثاً عوابس تحمل الأبطالا
مازلتَ تحسب كل شيء بعدهم خيلاً تُشد عليكمُ ورجالا
قال الأخيطل إذ رأى راياتهم يا مار مرجس لا نريد قتالا
لو أن تغلب جمَّعتْ أحسابها يوم التفاضل لم تزن مثقالا
تلقاهمُ خلماء عن أعدائهم وعلى الصديق تراهمُ جهالا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقوله فيه : (الديوان ص ٤١٤)

لقيتم بالجزيرة خيل قيسٍ ... فقلتم مار مرجس لا قتالا
تسوف التغلبية وهي سكرى ... قفا الخنزير تحسبه غزالا
من المتولجات على النشاوى ... ولا تلج الخدور ولا الحجالا
تظل الخمر تخلج أخدعيها ... وتشكو في قوائمها امذلالا
إذا انفتقت عباءتها وضاقت ... رأى الراءون داهيةً عُضالا
أليس أبو الأخيطل تغلبياً ... فبئس التغلبيُّ أباً وخالا
إذا ما كان خالك تغلبياً ... فبادل إن وجدت له بدالا

وقوله يهجو التيم (الديوان ص ٥٥)

تيميةٌ هَمَشَى[1] تقول لبعلها ... لا تنظرنَّ إذا وضعتُ ثيابي
وكأن عريتها إذا واجهتها ... جُلَّانِ مكتنفانِ فرخَ غراب
أعرابكم عارٌ على حضّاركم ... والحاضرون خزاية الأعراب
قومٌ إذا حضر الملوكَ وفودُهم ... نتفت شواربهم على الأبواب

وقوله فيهم : (الديوان ص ١٦٥)

ويُقضى الأمرُ حين تغيب تيمٌ ... ولا يُستأمرون وهم شهودُ
وإنك لو لقيت عبيد تيمٍ ... وتيماً قلتَ أيُّهمُ العبيد

وقوله فيهم : (الديوان ص ٤٣٨)

كأن التيم إذ فخرت بسعدٍ ... إماء الحي تفخر بالحمولِ[2]
ترى التيمي يزحف كالقرَنْبَى ... إلى تيميةٍ كعصا المليل[3]

(١) الهَمَشَى : الكثيرة الاختلاف التي لا تقر في بيتها .
(٢) اي كالإماء يفخرن بأحداج ساداتهن .
(٣) القرنبى : خنفس طويل القوائم . وعصا المليل : العصا التي يحرك بها ما يل في النار .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إذا كشرت إليه يقول بلوى بلا حسنٍ كشرت ولا جميل
تشين الزعفران عروس تيمٍ وتمشي مشية الجُمَل الزحول
يقول المجتلون عروس تيمٍ شوى أم الحُبَيْنِ[1] ورأس فيل

الغزل

برع جرير بحلاوة الغزل كما برع بمرارة الهجاء ، يتجلى طبعه في نسيبه رقيقاً عذباً سمحاً سهلاً ، فهو من أنسب الشعراء الإسلاميين وأرقهم غزلاً ؛ وغزله بدوي عفيف بريء يمثل مروءة البداوة وصيانة الإسلام ، حتى قيل إن جريراً لم يتغزل إلا بأزواجه أو بمن يملك ، وهو يترجم عن عاطفة رقيقة ونفس حساسة بالرغم من قوله : « ما عشقت قط ولو عشقت لنسبت نسيباً تسمعه العجوز فتبكي على ما فاتها من شبابها » وأظهر ما في غزله الحنين والتشوق والشكوى والذكرى ويقل فيه المرح شروى قوله :

أزمان يدعوني الشيطان من غزلي وكن يهوينني إذ كنتُ شيطانا

وقوله :

يقول العاذلات علاك شيبٌ أهذا الشيب يمنعني مرامي

ولا تكاد تجد في غزله قصصاً أو ما في معناه من الوصف المتتالي ، وإنما هناك بدوات وأفكار متداعية تمثل عاطفة وثابة ولوعة تتنزى ، والمقطوعة من غزله تعرض على القارئ صوراً شتى من ذكرى تهيج إلى دمعة تجري إلى قلب يخفق إلى حنين يشجي ، تثيرها الدور الخالية والأطلال البالية والظعائن الراحلة والبروق المتألقة والحمائم المغردة ، ولا تجد غزلاً أرق ولا أعف من غزله . سمع الفرزدق بالمدينة قينة تغني بشعر جرير فقال : « ويل ابن المراغة ما كان أحوجه مع عفافه

(١) الشوى : البدان والرجلان والأطراف . وأم الحبين : دويبة كالحرباء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إلى صلابة شعري وأحوجني مع شهواتي الى رقة شعره[1] » والذي يرى عفافه في غزله يستغرب ذلك الإقذاع في هجائه .

والأمثلة على إحسانه في الغزل كثيرة نورد منها هذه الأبيات : (الديوان ص ٦٠١)

ألا أيها الوادي الذي ضَمَّ سيله ... إلينا نوى ظمياء حُييتَ واديا
إذا ما أراد الحي أن يتفرقوا ... وحنَّتْ جمال الحي حنتْ جماليا
الى الله أشكو أن بالغور حاجةً ... وأخرى إذا أبصرت نجداً بداليا
نظرت برَهْبَى والظعائن بالاوى ... فطارت برهبى شعبةٌ من فؤاديا
إذا ذُكرتْ ليلى أتيح ليَ الهوى ... على ما ترى من هجرتي واجتنابيا
ولو أنها شاءت شفتني بهيِّن ... وان كان قد أعيا الطبيبَ المداويا
فإنكِ إن تعطي قليلاً فطالما ... منعتِ وحلَّأتِ القلوب الصواديا
إذا اكتحلتْ عيني بعينك مسني ... بخيرٍ وجلَّى غمرةً عن فؤاديا
تخطَّى إلينا من بعيدٍ خيالها ... يخوض دُخداربًا من الليل داجيا
فحييتَ من سارٍ تكلف موهنًا ... مزاراً على ذي حاجة متراخيا

الرثاء

الشاعر المرهف الحس يحسن الرثاء فيمن يجب من قريب أو صديق ، وهكذا الشأن في مراثي جرير ، فما كان منها في أهله فجيد بارع ، وما سوى ذلك فليس له تلك المنزلة . ومما أجاد فيه وبرع وفاق جميع معاصريه من الشعراء رثاؤه لامرأته أم حزرة ، وقلَّ من الشعراء في جميع العصور من وفق في رثاء النساء كما وفق جرير في قصيدته هذه ، فقد كان فيها زوجاً أميناً رقيق العاطفة حسن الرعاية وافر المودة عميق الحزن شديد اللوعة ، وصف امرأته

(١) الأغاني ، ج ٨ ص ١٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بأكرم ما توصف به الحرائر وبكاها بكاء مخلص في حبه مفجوع في حبيبه ومحبه ، حتى صارت تلك القصيدة مما يناح به على النساء في المآتم ، فقد روي أنه نيح بها على النوار امرأة الفرزدق . وكان جرير يسمي هذه القصيدة الجوساء لذهابها في البلاد . وهاك أبياتاً من أولها : (الديوان ص ١٩٩)

لولا الحياءُ لعادني استعبارُ ... ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يُزارُ
ولقد نظرتُ وما تمتع نظرةٍ ... في اللحد حيث تمكن المحفار
فجزاكِ ربكِ في عشيرك نظرةً ... وسقى صداك مجلجلٌ مدرار
ولَهَتْ قلبي إذ علتني كبرةٌ ... وذوو التمائم من بنيك صغار
ولقد أراك كسيتِ أجمل منظرٍ ... ومع الجمال سكينةٌ ووقار
صلى الملائكة الذين تخيَّروا ... والصالحون عليك والأبرار

وكذلك قصيدته التي يرثي بها ابنه سوادة والتي مطلعها :

قالوا نصيبك من أجرٍ فقلت لهم ... مَن للمرين إذا فارقت اشبالي

فهي دمعة مصبوبة ولوعة مشبوبة وحزن ينطق . كان بشار بن برد ينشدها يوم فقد ولده ويقول : لله در جرير . أما مراثيه في غير أهله فأكثرها مقطعات لا تعرب عن نفس حزينة وإنما هي تقريظ وتفجع مصنوع .

الفخر

أكثر شعر جرير في الهجاء ، والهجاء في القرن الأول لا يكاد يخلو من الفخر ، لأن الشاعر يرمي خصمه بكل نقيصة وينسب لنفسه وقبيلته كل مكرمة ، ولا تكاد تجد قصيدة في الهجاء لجرير إلا وجدت فيها فخراً مثل قوله يهجو الأخطل :

إن الذي حرم المكارم تغلباً ... جعل الخلافة والنبوة فينا
مضرٌ أبي وأبو الملوك فهل لكم ... يا خزر تغلب من أبٍ كأبينا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا يكاد جرير يفتخر بكليب لقلة مفاخرها بل يتخطاها الى يربوع وتميم فينوّه بمفاخرهم والأيام التي كانت لهم وأخبارهم الحميدة في الجاهلية والاسلام . وهذا الفن من الشعر يصور عصبية العربي الى قبيلته التي ورثها عن الجاهلية ولم يستأصلها الاسلام . ولا ينسى جرير إلى جنب ذلك ان يفتخر بنفسه فينسب اليها الشجاعة والكرم والنجدة وطيب العنصر ، ولا سيما التفوق في الشعر والسبق في مضماره وكبت خصومه من الشعراء على كثرتهم . وقصائده التي صرفها للفخر خاصة قليلة ومنها مقطعات وأبيات وأراجيز . ولكن أكثر فخره في أهاجيه ، وهو لا يسامي الفرزدق في هذا الباب وإن فضّله بعضهم عليه في الفخر أيضاً مثل بشر بن مروان [1] .

المدح

ليس المدح من أبواب شعر جرير البارعة إذا قيس بهجائه وغزله ، فقد كان يقوله مستجدياً ، ولا تكاد قصيدة من مدائحه تخلو من الاستجداء وشكوى الفاقة والإلحاح بالمسألة ، مثل قوله : (الديوان ص ١٥٦)

« لولا رجاؤك قد قتّلت أولادي »

وقوله : (الديوان ص ٣٥٤)

أشكو إليك فأشكني ذربةً ... لا يشبعون وأمهم لا تشبعُ
كثروا عليّ فما يموت كبيرهم ... حتى الحساب ولا الصغير المرضع
وإذا نظرت يريبني من أمهم ... عينٌ مهجحةٌ [2] وخدٌ أسفع
واذا تقسمت العيالُ غبوقَها ... كثر الأنينُ وفاض منها المدمع
رِشني فقد دخلتْ عليّ خصاصةٌ ... مما جمعتَ وكلّ خير تجمع

(١) الأغاني ، ج ٨ ص ٣٧ .
(٢) أي عين غائرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكنه لا يذهب عن فطنته تقريظ الممدوح بما ينبغي أن يمدح به ، فقد اتصل بالحجّاج بن يوسف ومدحه بالقوة وشدة الشكيمة وقمع الفتن وإخماد النوائر وسعة السطوة وأن الله أمده بالملائكة واستجاب دعاءه . قال يمدح الحجّاج (الديوان ص ٩٠)

من سدَّ مُطَّلَعَ النفاق عليهم ... أم مَن يصول كصولة الحجّاج
أم من يغار على النساء حفيظةً ... إذ لا يثقن بغيرة الأزواج
إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ... ماضي البصيرة واضح المنهاج
ماضٍ على الغمرات يُمضي همَّه ... والليل مختلف الطرائق داج
منع الرُّشى وأراكمُ سبل الهدى ... واللصَّ نكَّله عن الإدلاج

فلما اتصل بعبد الملك بن مروان بشفاعة الحجاج مدحه مدحًا سياسيًا ، فنال من عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب ، وجعل من يخالف بني أمية ملحداً أو مبتدعًا . قال في القصيدة التي يمدح بها عبد الملك وينال من ابن الزبير : (الديوان ص ٩٩)

دعوتَ الملحدين أبا خُبيب[1] ... جماحًا هل شفيتَ من الجماحِ

ومنذ ذلك الحين علقت حباله بحبال بني أمية فمدح جميع الخلفاء الذين تتالوا بعد عبد الملك الى هشام ، كما مدح عدداً من أمراء بني أمية ، وكان يسعى الخليفة منهم بالمهدي ، قال في سليمان بن عبد الملك : (الديوان ص ٤٦٢)

سليمانُ المبارك قد علمتم ... هو المهدي قد وضح السبيلُ

وقال في أخيه هشام : (الديوان ص ١٤٧)

فقلتُ لها الخليفةُ غيرَ شكٍّ ... هو المهدي والحكم الرشيدُ

وقال فيه أيضًا : (الديوان ص ٥٠٥)

الى المهدي تفزع إنْ فزعنا ... ونستسقي بغرته الغماما

(١) يريد بأبي خبيب عبد الله بن الزبير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان يصرح بأن هواه السياسي مع بني أمية قال : (الديوان ص ٥٠٦)

وريشي منكمُ وهواي فيكم وإن كانت زيارتكم لماما

ويمدح الشاميين وسياستهم ، قال في القصيدة التي يمدح بها يزيد بن عبد الملك : (الديوان ص ٣٩٠)

تدعو فينصر أهل الشام إنهمُ قومٌ أطاعوا ولاة الحق وائتلفوا

ما في قلوبهمُ نكثٌ ولا مرضٌ إذا قذفتَ محلاً خالعاً قذفوا

قد جرب الناس قبل اليوم أنهمُ لا يفزعون إذا ما قعقع الحجف

ويعتذر عما فرط من قومه بني تميم في نصرة عبد الله بن الزبير ويشفع بهم لأنهم تابوا توبةً نصوحاً ، قال لهشام بن عبد الملك : (الديوان ص ٥)

لاتجفونَّ بني تميمٍ إنهم تابوا النصوحَ وراجعوا حسن الهدى

من كان يمرض قلبه من ريبةٍ خافوا عقابك وانتهى أهل النهى

وينوه ببلاء بني أمية بالفتوح وسعة السلطان ، ولقد مدح طائفة من أمرائهم وولاتهم ، ولم يروَ عنه أنه مدح أحداً من خصومهم لأنه كان معروفاً بمداراة السلطان ، ولأنه كان يتكسب بمدحهم فلا يتورط فيما يغضبهم أو يقطع صلتهم عنه ، ومع أن الاستجداء أظهر ما يكون في مدحه فقد أشار الى فتوح بني أمية أكثر من جميع شعرائهم .

بقية الأغراض

تلك أهم الأغراض التي عالجها جرير في شعره ، ولكلٍ منها فروع تسوقها المناسبات ليس بالسهل استقصاؤها ؛ وهناك أغراض أخرى نظم بها جرير كالوصف والعتاب والشكوى والأدب والحكمة وبعض حوادثه الخاصة . وأهم ما يعنينا أن نتكلم عنه في هذا الفصل هو الوصف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إذا أردنا بالوصف الوصف الفني المتتالي المتسلسل الذي يصور الموصوف صورة واضحة لم نجد جريراً من السابقين في هذا الباب ، لأن شعر جرير في جملته بدوات ولمحات ، لا يصبر على الاستمرار في وصف ما يتناوله حتى ينتصف منه ، بل تتداعى أفكاره فينتقل من معنى الى آخر دون استقصاء ، ولا تكاد تجد له قصيدة أو مقطوعة صرفها لوصف شيء واحد ، وإنما كان يصف عرضاً وبالمناسبة على سبيل الاقتضاب ؛ وأكثر ما عالج وصفه البادية وعالمها من سهل وجبل ورسم وطلل وركب وإبل وسراب وواد ووحش وطير وشيح وقيصوم وغضا وما الى ذلك مما يتعلق بالبادية التي كان يقطنها في وفوده على الخلفاء بالشام .

وقد وصف ـ على طريقته التي ذكرناها ـ أسطولاً حربياً للحجّاج في قصيدة مدحه بها قال : (الديوان ص ٤٤١)

سلكتَ لأهل البَرّ بَرّاً فنلتَهم ... وفي اليم يأتم السفينُ الجوافلُ

ترى كل مِرْزاب[1] يُضَمَّنُ بَهْوُها ... ثمانين ألفاً زايلتها المنازلُ

جَفُولٍ ترى المسمار فيها كأنه ... إذا اهتز جذعٌ من سُمَيْحة ذابلُ[2]

إذا اعترك الكَلاّء والماء لم تَقِدْ ... بأمراسها حتى تثوب القنابلُ[3]

تجال جبال الثلج لمّا ترفعتْ ... أجِلّتُها والكيدُ فيهن كامل[4]

تشق حَباب الماء عن واسقاته ... وتفرس حوت البحر منها الكلاكل

وألمّ بشيء من وصف الرصافة التي كان ينزلها هشام بن عبد الملك وبما بذله هشام في إصلاحها وتزيينها قال : (الديوان ص ١٥٠)

---

(١) المرزاب : السفينة الضخمة .

(٢) المسمار : الدقل . وسميحة : بئر بالمدينة .

(٣) الكلاّء : مجتمعها . يريد أنها لا تضبط إلا بأعوان كثيرة .

(٤) أجلتها : شرعها . والكيد : السلاح .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شققتَ من الفرات مباركاتٍ جواري قد بلغن كما تريدُ
وسخَّرتَ الجبال وكنَّ خُرساً يقطَّع في مناكبها الحديد
بلغتَ من الهنيء[1] فقلتَ شكراً هناك وسُهِّل الجبلُ الصَّلُود
بها الزيتون في غَلَلٍ[2] ومالتْ عناقيد الكروم فهن سود
فتمت في الهنيء جنان دنيا فقال الحاسدون هي الخلود
يعضون الأنامل أن رأوها بساتيناً يوآزرها الحصيد
ومن أزواج فاكهةٍ ونخلٍ يكون بحمله طلعٌ نضيد

وقال أيضاً : (الديوان ص ٤)

إن الرصافة منزلٌ خليفةٍ جمع المكارم والعزائم والتقى
أُوتيت من جذب الفرات جواريا منها الهنيء وسائح في قرقرى
والمجد تالزند الذي أوريتم بحرٌ يَمُدُّ عُبابُه جُوف القَنى

ومن هذا الوصف يرى القارئ بداوة جرير في تناوله وصف الماء والشجر وإغفاله وصف قصور الرصافة العظيمة وبنيانها الفخم .

ولعل أصدق ما يقال في جرير أنه أطبع الشعراء الإسلاميين وأهجاهم ومن أرقهم نسيباً .

خليل مردم بك

(١) الهنيء والمريء : نهران بإزاء الرقة حفرهما هشام بن عبد الملك .
(٢) الغلل : الماء الجاري تحت الشجر على وجه الأرض .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net